الأكاديمية للدراسات
الإجتماعية والإنسانية

الشمولية وتدميرها لبنى المجتمع

Totalitarian Power and Social Infrastructure Destruction

أ. مساهل فاطمة
أستاذة مساعدة «أ» كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف -
messahel-fatma@live.com

ملخص

الشمولية شكل من أشكال الحكم السياسي للطغيان ظهرت في القرن العشرين ، وهي نظام المجتمع المغلق ، وهي ذات طبيعة إستبدادية منحدرة من الفاشية و النازية، وتعني سيطرة الحزب الواحد في الدولة ، ووسائلها القمع و الإرهاب، كما تسيطر على حرية الرأي والتعبير و كافة وسائل الإعلام و النشاطات السياسية، أول خطوة يقوم بها النظام الشمولي هو تدمير هيكل المجتمع ، أي الوصول الى مجتمع متذرر.

الكلمات الدالة: السلطة الشمولية ،المجتمع ،السيطرة ،الإستبداد.

Abstract

Totalitarism is kind of dictatorship political governance that appeared in the 20th century. It is a type of ruling which has an oppressive nature and which is based on tyranny that comes from the nazi movement. The principle of totalitarism is the governance of a unique party which uses extreme severity rigour and terror. In this system, people have no opinion and all political, media and communication systems are being held by the ruler. The first step used by totalitarism is destruction of society's frame for the goal of creating a divided society

Keywords: *Totalitarian Authority, Society, Dominance, Monopoly Structure.*

مقدمة

إنّ الشمولية **Totalitarisme** مشتق من الفعل اللاتيني **Totalitas** ، أي الكل أو الإمتلاء وهي نظام المجتمع المغلق و شكل من أشكال الحكم الشمولي السياسي للطغيان **Terranie** بحيث ينعدم على مستواه القانون و النّظام ، و تكون السلطة في يدّ رجل واحد ، فالشمولية هي إحدى طرق الحكم و في أغلب الكتابات السياسية تكون مقابلة للديمقراطية ، وهي بإختصار تعني نظام سياسي يُسيطر فيه حزب واحد فقط على الحياة السياسية في الدولة ولا يسمح بوجود معارضة أو تداول سلمي للسلطة، فهي مرتبطة إرتباطًا وثيقا بوجود نظام بوليسي قوي يعتمد على القمع و الإرهاب ، ويتدخل في الشؤون الخاصة للأفراد كما يمنع و يضع حد لحرية التعبير عن الرأي ، ويُسيطر تمامًا على وسائل الإعلام وكافة النشاطات السياسية [1].

وعليه فالشمولية ذات صبغة إستبدادية ظهرت في القرن العشرين ، وهي منحدرة من الفاشية ففي الدولة الشمولية لا يوجد معنى للفرد ، ولايعرف هذا الأخير إلا من خلال علاقته بالمجموع «الشعب»أو «الأمة «، فتصبح الدولة مطلقة ، ويتم

عسكرتها لتأمين الإرهاب و التمكن من الهيمنة على الأفراد [2]، ومن أشهر الأمثلة التاريخية على تجارب الحكم الشمولي هما :(الحزب النازي في ألمانيا و الحزب الشيوعي في روسيا ، وهذا ما جعل الشمولية) ترتبط بالطغيان.

وقد أشار» كارل فريدريش» «وريمون أرون» إلى خمس صفات أساسية تميّز النظام الشمولي منها : أنه حزب وحيد يراقب جهاز الدولة ، يديره رئيس ذو كريزمة خاصة ، نظام يتميز بالطغيان أي نظام يعطي لطرف واحد الصلاحية الإحتكارية للنشاط السياسي ، نظام إيديولوجي لكل حزب شمولي مُسيطر له إيديولوجية خاصة ، كما يتميز بإحتكار وسائل الإتصال الجماهرية ووسائل الإقناع المتمثل في جميع وسائل الإعلام كالإذاعة و التلفزيون و الصحافة ...الخ، بالإضافة إلى إدارته المركزية للإقتصاد .

ومن بين الفلاسفة الذين نظّروا للنّظام الشمولي الفيلسوفة الألمانية «حنا أرنت» وعليه نطرح الإشكال التّالي :ما مفهوم السلطة الشمولية عند حنا ارنت ؟ وكيف يُحطم النظام الشمولي طبقات المجتمع ؟.

تعتبر حنا أرنت **Hnnah Arendt** نفسها مفكرة حرة لا تنتمي لدائرة الفلسفة متجاوزة بذلك كل تقاليد التفكير، مثقفة قادمة من اللّامكان غجرية التفكير ، فيلسوفة، منظّرة، مفكرة ، عالمة اجتماع صحفية .

ما يلاحظ من الإطّلاع على كتب أرنت وما كتبته طيلة مشوارها الفكري في مجموعة المحطّات السياسية و الفلسفية ، فهي تعتبر نفسها قد خرجت من الفلسفة يوم اعتلى الحزب النازي ، الحكم في 27 فبراير 1933 «...لقد أخذت منذ مدة عطلة عن الفلسفة... يمكنني أن أتحدث عن 27 فيراير 1933 لقد كان الأمر بالنسبة لي صدمة مباشرة ومنذ تلك الفترة شعرت أنني مسؤولة...لكن كان الأمر يتعلق أولا بمسألة سياسية و ليست شخصية ...، وبعدها ما كان بشكل عام سياسيا أصبح قدرا شخصيا » [3] ، يبدو أن ما سمته بالقدر الشخصي ، قد تغير بعد ذلك ، حيث عادت في أخير كُتبها لتطرح سؤالا فلسفيًا داخل الدائرة السياسية التي فرضت ذاتها على أرنت كمفكرة وكفيلسوفة وكمواطنة ألمانية ذات أصول يهودية ، لذا طرحت سؤالا جوهريا ، ماذا يحدث عندما نفكر ؟

لايمكن القول أن هناك مرحلة أو محطة سياسية في حياة» أرنت» و مرحلة للفلسفة ، لأنها فكرت الفلسفة وفكرت داخل الفلسفة وهي تتناول المسائل السياسية ، كما تناولت المسائل السياسية عندما فكرت «نشاط التفكير « **(carl friedrich)** يحضر اسم «أرنت» في الفكر المعاصر حضورًا نوعيا خاصة لدى النخبة الثقافية ، خصوصا بعد صدور كتابها «أسس التوتاليتارية» الذي دعّم رصيدها الفكري أخرج اسمها الى دائرة النور في الولايات المتحدة الأمريكية (صدور المؤلف أول مرة) بعد ذلك في فرنسا ، لكن الإلتباس الذي صاحب هذا الحضور يكمن في صعوبة فكرها ، كفيلسوفة وفية لسنوات الدراسة الجامعية التي كانت على يد «مارتن هايدغر»و «كارل ياسبرس»، أم كفيلسوفة سياسية تابعة لمنهجها في التفكير الذي يضّم بحث القضايا السياسية من منظور« أركيولوجي» ، أم هو فكر سياسي جديد مغاير من خلاله تسعى لبلورة نظرية جديدة في علم السياسة . ففي رأي «حنا أرنت» أن الهدف الحقيقي لخلق نظام سياسي ليست السيطرة ولا اضطهاد الأشخاص ، ولا خضوعهم لعبودية أحد ، هدفنا تحرير الفرد من الخوف بإختصار إنّ هدف التنظيم في المجتمع هو« الحرية» تطرح أرنت فرضيتها القائلة بأن عوامل التشابه بين الفاشية و الشيوعية هي أكثر عوامل الإختلاف ، فكيلاهما يمكن تصنيفه في فئة منفردة هي الشمولية ، وأهم مثال على ذلك عند الفيلسوفة هي ألمانية النازية وروسيا الستالينية ، وتؤكد الفيلسوفة أن الشمولية تختلف بجوهرها عن جميع الأشكال المعروفة للإستبداد و الطغيان أو الدكتاتورية ، وهذا في كل مكان وصلت اليه السلطة، فالشمولية من وجهة نظرها أحدثت مؤسسات سياسية جديدة كليا ، لقدت دمرت كل التقاليد الإجتماعية ، القانونية والسياسية للدول التي حكمتها ، و النظام الشمولي يُحول دائما جميع الطبقات الى جماهير غير نظام الأحزاب الى دكتاتوريات ذات حزب واحد ، ولكن بحزب للجماهير ، ينقل مركز سلطة الجيش و الأمن ويضع في التنفيد سياسة خارجية تريد الهيمنة على العالم [4]، وعليه : ما أساس التوتاليتارية (الكليانية)؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال نحدد ماهية الكليانية ، خصائصها و سمّاتها ، إن أول من استعمله في ميدان العلاقات السياسية موسوليني، فقد استعمل هذا المصطلح الذي بلوره المفكر السياسي الإيطالي «جوفاني جينتيلي»، الذي انتقل من الفكرة القائلة ، لاحدود و لا أماكن لا يحق للدولة التدخل فيها ، وأن الدولة الكليانية هي تجسيد للروح الأخلاقي للشعب ، وهذا بدوره يفرض ذوبان الفرد في البنية العامة للدولة و حركاتها السياسية ، يُعد كتاب حنا أرندت «أسس التوتاليتارية »وثيقة تحليلية للفكر الأوروبي المعاصر (يتميز هذا المؤلف بالفطنة و الحياد عن المؤثرات الوجدانية والإيديولوجية)، اعتمدت الفيلسوفة«أرنت» في كتابها «أسس توتاليتارية» على التأمل الطويل في الوثائق و الشهادات التاريخية و مصادر المحاكمات، فضلا عن الوثائق التي سرّبها لها المعارضون الشيوعيون في روسيا، حيث استطاعت«أرنت» الوصول إلى العوامل و البنيات السياسية و الإقتصادية و الأزمات التي عصفت في تلك المجتمعات ، وأدت إلى ميلاد وظهور النازية الألمانية و الستالينية السوفياتية، من هنا أبرزت العوامل و الكيفيات و البنيات التي تحكمت في ميلاد ظاهرة التوتاليتارية وتطورها كمنتوج خاص بالقرن العشرين ، تميزت الفترة التي أمضتها«أرنت» في كتابت مؤلفها الذي طال حوالي خمس سنوات، أي أربع بعد سقوط النازية في ألمانيا ، وأربع سنوات قبل وفاة ستالين بالإتحاد السوفياتي، هي أول فترة اتسمت بالهدوء النسبي ، بعد حقبة طويلة مليئة بالصخب و التوتر و

الخوف ، إن جيل« أرنت» لم تتح له فرصة التفكير بهدوء في مسار الأحداث المروعة التي طبعت مسار حياة أوروبا على وجه الخصوص ، لأنه لا يزال الخوف يُخيم على النفوس وكأن لأحد إقتنع بعد أن ما وقع أصبح في طي الماضي .

والعواطف لاتزال ملتهبة جراء مشاعر الألم و الحقد والخجل [5]، إن كتاب أرنت«أسس التوتاليتارية» كان في ظل تلك الظروف المشحونة ، بحيث كان عمل إستبعاديا وإسترجاعيا للأحداث ، لكن ليس بعين المتأمل الترندتستندانتالي ، وإنما بعين مؤرخة أومنظرة سياسية محايدة وباحثة عن الألام و مراجع الحقيقة .

إن أرنت من خلال كتابها تقدم دعوة صريحة ، وهذه الأخيرة ليست في الواقع مجرد زعم أوفرض نظري، بل من خلال تتبع فصول كتابها الشارح لطبيعة السلطة الشمولية ، نكتشف شخصية«أرنت» المتوازنة (السيدة اليهودية المثقفة المؤمنة بالحرية والعدالة) [6] تُحلل و تبحث المآسي التي عاشها اليهود و المثقفون ضمن عموم الشعوب التي خضعت للطغيان الكلياني النازي والبلشفي ، بنوع من برودة الأعصاب و حيادة الذهن، لأجل أن تقدم نتائج في مستوى الشروط العلمية التي راجت في بداية القرن العشرين ، ركزت «أرنت» في شرحها وتوضيحها لطبيعة السلطة الشمولية على التجربة الألمانية (النازية) والتجربة السوفياتية لأنهما اعتمدتا على دكتاتورية الحزب الواحد بالرغم من وجود أنظمة شيوعية أخر المتمثلة في الشيوعية الصينية والفاشية الإيطالية مع موسولوني إلا أن «أرنت» لم تول لهما إهتماماً بارزًا، لأنهما لم يقترفا مجازر عبثية بحجم الضحايا الذي خلفته ورائها الألة الهتلرية و الستالينية ، بالإضافة الى ندرة الوثائق على سبيل المثال التي تخص الحزب الشيوعي الصيني الذي بدا في نظرها كبنية متراصة بدون مداخل و لا مخارج (فلم يكتب للمعارضين الصنين أن غادروا البلاد من جهة ولم يكتب للمُخبرين الغربين أن يخترقوا المجتمع الصيني ولا الحزب الشيوعي) [7]، قامت «أرنت » بتقسيم تاريخ هذه الدينامية الى مرحلتين هما :

1ـ مرحلة الحركة

هي الفترة التي كانت فيها النزعات التوتاليتارية مجرد حركات في المشهد السياسي الأوروبي الذي تلى نهاية الحرب العالمية الأولى ، حيث نجد أرنت تبحث عن المعطيات الوجدانية والإيديولوجية التي عملت هذه الحركات على استثمارها في تهيئة الجماهير بواسطة الدعاية الإيديولوجية ، هنا تفطنت حنا أرنت في عملية التحليل الى التميز في إطار النشاط الدعائي بين الدعاية في مرحلة الحركة وفي المرحلة اللاحقة عليها.

2ـ **مرحلة السلطة** «أي السلطة المرتبطة بالإستلاء على مقاليد الحكم».

في هذه المرحلة تُبيّن« أرنت» في كتابها توتاليتارية آليات العمل و التنظيم و الفعل ستعرف إنقلابا جذريا، في هذه المرحلة نلاحظ تبيان وتوضيح أرنت عملية «الخيانة» أي خيانة القواعد التي رسختها المرحلة الأولى ، أما الفصل الأخير من الكتاب فهو مخصص لبحث طبيعة البنية الإرهابية وكل بنيات العنف السياسي و الإجتماعي كركائز وأسس تستند عليها الإيديولوجيات التوتاليتارية، لكن في هذه الورقة البحثية نقتصر فقط على : **كيف تحطم الشمولية بنيات المجتمع ؟.**

أولاً – الشمولية كظاهرة جماهرية

الشمولية هي حركة«للجماهير»، ولكن «أرنت» تعطي معنى دقيق وخاصًا لمفردة «الجماهير» غير المعنى الذي تبنته الماركسية أوالإشتراكية ،الذي يُشير الى «الطبقات الكادحة »، إن أطروحة «أرنت» هي على العكس من ذلك، الجماهير أوالتكتلات الجماهرية التي عليها ومعها الحركات الشمولية تريد التحرك و القيام بسلوكها وأفكرها ليس عبارة عن طبقات بمعنى ليست مجموعات منتظمة مبنية ، لها حالة معينة (هوية وأهداف معينة واضحة ودقيقة في البناء الإجتماعي الكامل والعام)، ولكن هي مجموعات غير منتظمة، غير متبلورة وليس لها شكل، وهي بهذه البنية الجاهزة كأساس لكل التحولات والمغامرات [8]، أيضا تُشير«أرنت» الى أن الشموليات لم تكن حركات أقلية أخذت في قبضة بعض الرجال الذّين سيغتصبون هذه الجماهير و يضحكون عليها، بل تمت مساعدتها بشكل فعال من قبل أغلبية السكان، فلا هتلر أو ستالين لم يصلاَ الى الحكم و الى السلطة ولم يبقيا فيها لو أنهم لم يحصلوا على ثقة الجماهير ، فلا يمكن الإستناد في حالتهما على أنهما حصلا على هذه الشعبية من خلال إنتصار دعاية سياسية كاذبة ومتناغمة مع الجهل و الغباء والسؤال الذي يطرح ذاته من خلال الفيلسوفة المُنكرة «أرنت»- لماذا العديد من السكان أوالشعوب وُجدت مُتمركز بشكل أو بأخر« أي حالة أو وضعية عقلية أو معنوية» إستطاعت من خلالها تقاسم المشاريع مع الشموليات و شاركتها جرائمها ؟ [9]

«حنا أرنت»سلطت الضوء على نقطة أساسية و رئيسة تمثلت في :

ثانيًا : تدمير بنيات المجتمع «تدمير الجماهير»

ترى «أرنت» أن هناك ظاهرة سبقت تحويل الشعوب إلى جماهير أو كتلة من البشر ، وهذا راجع للتطور الرأسمالي الذي أحدث تغيرات في المجتمع من خلال قطيعة مع التضامن التقليدي القائم في هذا المجتمع ، ففي البلدان التي إنتصرت فيها الشيوعية ، التطورالرأسمالي لم يذهب بعيدا، و لكن عناصر أخرى بقيت موجودة في روسيا ، السكان كان بإمكانهم أن يصبحوا جماهير أو كتلاً بشرية لأن السكان الريفيون لم يكونوا يشكلون طبقات من جهة أخرى الشيوعيون أنفسهم إلتزموا بتفكيك أو تدمير المجتمع من أجل الذهاب الى عمق منطقهم في التفكير [10]، أن جوهر الشمولية يختلف عن غيره من أشكال القمع السياسي الذي نعرفه «الإستبداد و الطغيان و الديكتاتورية»، فالنظان الشمولي هو خلق مؤسسات سياسية جديدة كليًا ، وتنشأ

من خلال تدمير التقاليد الإجتماعية و القانونية و السياسية للبلد ، أي« تحطيم كل ما هو إيديولوجي»، فالنظام يحّول دائما طبقات المجتمع (الجماهير) ويستبدلها بنظام الحزب الواحد [11]، فمن أجل تحويل الديكتاتورية الثورية عند «لنين» الى نظام شمولي بالكامل فستالين كان بداية مجبورًا بخلق أو إنشاء وبشكل مصطنع المجتمع «المتذرر»من الذرة، حيث الظروف التاريخية كانت قد تهيأت مسبقًا في ألمانيا عند النازين ، فالنازيون وجدوا جماهيرًا غير متبلورة أو لا شكل لها ، البلاشفة دمَروا «القروية» أو طبقة القرويين ، ثم الطبقة العمالية فبعد ذلك بيروقراطية الحزب و الدولة نفسها ، حيث أكثر من 50% من بيرقراطية الدولة تمت تصفيتها بين عامي 1936و1938.

ترى «أرنت» قد يصدق أن يكون هتلر قد إستفاد من دعم البرجوازية الصناعية و خدمة مصالحها ، كما إستطاع ستالين بمكره السياسي والتنظيمي أن يجمع حوله عددًا من أعضاء الحزب الشيوعي لأجل وضع خطة في الكواليس لإبعاد كل منافسة عن طريقه ، لكن هذه المعطيات لوحدها لايمكنها أن تكون القوة الدافعة لبروز هذه التوتاليتارية كمشروع طغياني ضخم و متكامل، لم يكن من الممكن أن تصل الحركات التوتاليتارية إلى السلطة ولا أن تنتشر على الأقل كمعتقد إيديولوجي جديد ، إن لم تكن مستندة إلى قوة جماهرية ضخمة وتحضى بثقتها ، بلغ هتلر السلطة بصورة شرعية منتظمة وفق قاعدة الأغلبية الحاكمة ، فكل من هتلر و ستالين لم يصلا الى السلطة و التحكم بزمامها لولا الرضّا و الثقة الجماهرية التي حازا عليها ، وإستطاعا بفضل العريضة أن يصمدَا في وجه الأزمات العديد من الأزمات الداخلية والخارجية [12]، فالجماهير تشكل الهدف الرئيس و القوة الدافعة لبروز الظاهرة التوتاليتارية في بعض بلدان أوروبا دون غيرها ، فبعض الأنظمة الديكتاتورية والطغيانية مثل نظام الحكم الفاشي في إيطاليا و الديكتاتورية العسكرية بإسبانيا لم يكتب لها أن تتحول الى أنظمة توتاليتارية حتى وإن كانت لها عدّة مميزات منها : الإعتماد على الحزب الواحد في الحكم ، الأفراد في التنظيم العسكري ، إستخدام العنف ، إلا أنها تشكوا من النقص الديمغرافي (غياب الجماهير) ، إن النظام الشيوعي الستاليني لوحده دون باقي الأنظمة الأخرى ، يتمتع بقوة ناتجة عن الوفرة الديموغرافية ، سمحت له بأن يتحقق منذ البداية بشكل توتاليتاري كامل ، في حين أن النازية الألمانية ظلت في البداية بشكل مجرد ديكتاتورية عسكرية إستبدادية إلى حين الشروع في عملية التوسع في الجهة الشرقية لأوروبا التي وفرت لها جلب أعداد ديمغرافية ضخمة عبرإخضاع شعوب بولندا وهنغاريا و النمسا [13] ، لقد تفطن وأدرك القادة والزعماء التوتاليتاريون أهمية الجماهير كقوة يمكن أن تشق أمامهم الطريق الى السلطة مهما تكن العوائق السياسية أو الإجتماعية.

فمهما كان السبب الرئيس و الدقيق للتدمير (المجتمع) في كل حالة من الحالات التي عرفها تاريخ المجتمعات الأوروبية ، يبقى أن الحركات الشمولية نشطت بين سكان ضائعين و لم يستطيعوا العمل والحركة الا بين هكذا نوعية من السكان ، في الواقع مصطلح «الجماهير» وفق «أرنت» يطبق فقط على أُناس لأسباب متعددة لم يستطيعوا الإندماج في أية منظمة أوتنظيم مؤسس على المصالح المشتركة، أحزاب سياسية، مجالس بلدية، منظمات مهنية أونقابية و «الجماهير» توجد في جميع البلدان بشكل قوي ، وتشكل الأغلبية من تلك الطبقات الضخمة من الناس الحيادية والمتشابه سياسيًا و التي تُصوت بشكل نادر و لا تنتمي نهائيا لأي حزب ، إن السكان في البلدان المتطورة حيث كانت الشمولية كانوا في أغلبيتهم «مادة أولية» جيدة و معتبرة كي يتحولوا الى جماهير أو كتل بشرية لأنه لم يكن لديهم سوى وعي سياسي ضعيف ومادامت هذه الجماهير تعاني من نكبات وجدانية وإقتصادية وإجتماعية من جراء الإستغلال الإقتصادي المُجحف (إستغلال جسدي وروحي بالدرجة الأولى) الذي تمارسه البرجوازية الصناعية ، فإن هذه الحركات التوتاليتارية أدركت و إستوعبت ميل هذه الجماهير لتمجيد العنف وكل الأعمال التي من شأنها أن تكسر الأغلال الأخلاقية والإقتصادية التي تُكبلها وتُعقها وتقيدها ، إن تأثر قادة التوتاليتاريون وإقتناعهم بالشر و الجريمة إقتناعًا أكيدًا ليس بالأمر الغريب أو حتى الجديد ، إذ لطالما ظهر : أن الرعاع يرحبون بأعمال العنف قائلين بإعجاب « لئن كان ذلك غير جميل ، فإنه بالغ القوة بالتأكيد » [14]، مما جعلهم يتفاخرون بإعلان جرائهم الماضية والكشف عن جرائهم الأنية ، إن ميلاد الحركات التوتاليتارية ناجم عن تدهور الشروط المعيشية لعموم الجماهير الشعبية أثر بالغ في تراجع الإهتمام بالحياة السياسية ، هذه الظروف سمحت لميلاد هذا النوع من الحركات، وهاته الأخيرة كانت نتيجة المنطق الإقتصادي البرجوازي الذي أفرط في [15] إستغلال الفقراء وتحويلهم الى حشود بشرية فاقدة لمعاني الكرامة الإنسانية و الإحساس بالهوية الذاتية و حتى الجماعية ، إن الطبقات البرجوازية في مختلف البلدان الأوروبية آنذاك مافتئت تطالب بإصلاح المؤسسات السياسية وإرساء قواعد الممارسة الديمقراطية البرلمانية، فإنها لم تكن في الواقع تطمح لإعتلاء سيادة السلطة ، لأنها في الحقيقة تركت هذه المسؤولية للطبقة الأرستقراطية وراحت تغالي في تكريس نمط حياة وفلسفة عيش متمحورين بصورة شديدة وحصرية حول ثنائية نجاح الفرد أوفشله في منافسة لاهوادة فيها، بحيث تصبح معها واجبات المواطن مسؤولياته مجرد إضاعة للوقت و الطاقة على حدّ السواء في ظل هذه الشروط التي تُبيّن للأفراد عدم جدواهم في التأثير حتى على مجرى حياتهم ، خلقت لديهم لامبالاة شديدة وحياد سلبي إزاء الحياة السياسية و الإنخراط في التنظيمات القائمة على المصلحة العامة أو المشتركة المتجسدة سواء في الأحزاب السياسية أوالمجالس المحلية أوالتنظيمات المهنية و النقابية بدأت تنهار بعض الأوهام الديمقراطية التي كانت

تُبشر بها الطبقات الأرستقراطية والبرجوازية، أول هذه «الأوهام» : القاعدة تنص بمشاركة أفراد الشعب بشكل فعال في الحكم و شؤون البلاد ، وهذا الوهم كشفته لنا مجريات الحياة الواقعية أن الفعالية تنحصر في يد الأقلية ذات مؤهلات ثقافية وإقتصادية و تاريخية في حين أن الأغلبية تظل مجرد خزان إنتخابي يُضفي شرعية شكلية على اللعبة الديمقراطية، أما «الوهم الثاني» : إرتبط بصورة المؤسسات البرلمانية المحضة في وجه عموم الشعب الذي ينتخب دون أن يكون من حقه أن يُرشح ممثله الذين ينتمون الى تربتة الإجتماعية والإقتصادية إن هذه التشوهات السياسية المدمّرة حولت الجماهير من عنصر فعال، صانع للقرار الى كتل ديموغرافية عديمة الأهمية في بلدان تسيّدت فيها الأقليات مما سهل أمام الحركات التوتاليتارية من سنة 1930 سواءًا في ألمانيا أو روسيا ، جذب أنصار من هذا الجمهور اللامبالي ، الذين كانوا موضع رفض من الأحزاب الأخرى جميعًا لإعتبارهم غاية في الحماقة ، و النتيجة أن غالبية المتعاطفين مع هذه الحركات الهوجاء كانت مُشكلة من أُناس لم يتح لهم من قبل الظهور على الساحة السياسية [16].

إن السبب الحقيقي والدقيق للتدمير، راجع للحركات الشمولية نشطت بين سكان ضائعين ولم يستطيعوا العمل والحركة إلا بين هكذا نوعية من السكان ، في الواقع مصطلح «الجماهير»وفق «أرنت» يطبق فقط على أُناس لأسباب متعددة لم يستطيعوا الإندماج في أية منظمة أو تنظيم مؤسس على المصالح المشتركة «أحزاب سياسية ، مجالس بلدية، منظمات مهنية أونقابية»، و«الجماهير»توجد في جميع البلدان بشكل قوي ، وتشكل الأغلبية من تلك الطبقات الضخمة من الناس الحيادية والمتشابه سياسيا ، والتي تُصوت بشكل نادرًا ولا تنتمي نهائيًا إلى أي حزب كما تمت الإشارة سالفًا، إن القواعد السياسية والديمقراطية تعود الى عامل رئيس يحركها، و المتمثل في عدد تضخم المنتسبين لها ، فبفضل هذا الأخير تصبح لها قوة مما يجعلها في غنى عن شرح مواقفها أو دحض إنتقادات خصومها السياسين بالحجج المقنعة و المناسبة، بل أثرت نهج وأسلوب الرد الإرهابي والدخول في عمليات إغتيال منظمة للعناصرالتي تزعج إديولوجيتها وطموحاتها نحو السلطة ، إن هذه الحركات إذا إشتاحت البرلمانات قدمت دليلاً إحتفاليًا على زيف الحياة السياسية و الديمقراطية البرجوازية وسمحت وسولت لنفسها إعدام كل أعضاء البرلمان و رجال الدولة، إن الحركات التوتاليتارية لم تهتم بالجماهير ، بالرغم من حاجتها الملحة لإستقطابها ، وتوظيفها لأغراضها لأنها لطالما كانت في حجة ملحة لهاته الجماهير المفتتة و المتشرذم، وإن كان كنا نلاحظ بعض الإختلاف في الحركة البلشفية حين إستولت على السلطة بين الفترة التي حكم فيها «لنيين» و الفترة التي حكم فيها «ستالين»، إن تحول الفكر السياسي الماركسي من الماركسية بقيادة لنيين الى الماركسية الستالينية ، كان قائما على كيفية تحقيق الإشتراكية النابعة من وسط الثورة(الثورة العمالية) فتكون هذه الأخيرة نتيجة تدهور و تأزم الأوضاع الإقتصادية و الإجتماعية ، ففي البداية يقوم العمال بإحتجاجات (رفع مطالب أي المطالبة بالحقوق) ،هنا فتتحول المعادلة من المطالب الإقتصادية الى مطالب سياسية (من لغة إقتصادية الى لغة السلطة و سياسية)، إن مفهوم الثورة في الفكر الماركسي، هي ثورة عفوية في المجتمعات المتطورة صناعيا، تكون نتيجة الإستغلال وسلب الحقوق من طبقة العمال، إن «لينين» لم يكن يؤمن بثورة العمال ، لأن الثورة التي حدثت في روسيا لم تكن متوقعة من طرف« ماركس»، فلنيين» كان يطمح الى ثورة عالمية (أي سيادة الإشتراكية وسيطرتها على العالم أي على الدول الرأسمالية)، فأصبح ينادي بالإشتراكية في بلد واحد متبني فكرة «ماركس» «ياعمال العالم إتحدوا»، هذا الشعاركان السبب الرئيس في إندلاع الثورة الروسية ، لكن بعد الثورة ترتب عنها تراجع على جميع الأصعدة، «فلينين» إستغل هذه الظروف وحاول قلب المفاهيم فقال مقولته الشهيرة«الإشتراكية هي ديكتاتورية البروليتاري زائد التشيد» [17]، لينين حاول قلب مفهوم الثورة من المفهوم السياسي الى المفهوم الإقتصادي ، لأنه كان من الواجب أن تبدأ ثورة جديدة تتجسد في البناء وتحقيق التطور الإقتصادي و الصناعي حتى تستطيع الشيوعية أن تسيطر على العالم «لأن الشيوعية هي فلسفة الرفاهية »[18]، إن التوجه نحو التصنيع و النمو الإقتصادي استوحاه «لنيين»من التطور البروليتاري في الدول الرأسمالية المتقدمة ، فالنظرية» اللينينة «أدت الى إعادة الإعتبار لتطورات العصرفي الرأسمالية ومفهوم إعادة الإعتبار هي التي أصبحت أساس النظرية الإشتراكية في البلد الواحد [19]، فالتوتاليتارية السوفياتية تقوم على أساس الإشتراكية في البلد الواحد أي فرض الهيمنة الكلية و التامة على الجماهير في الواقع (هذا هو هدف التوتاليتارية السوفياتية من منظور أرنت) [20]، إن «أرنت» تخرج و تستثني فترة «لنين»من التجربة التوتاليتارية المنجزة ، لأنها ترى شخصية «لنين» كرجل دولة أكثرمن قناعاته الماركسية الشيوعية «في فترة حكمه» ، لأنه أدرك نجاح مشروع الثورة يُدرك أثناء غياب تجانس البنية الإجتماعية ، لذا هو كان يريد تحقيق القوميات و التكلات مهمى كان نوعها ، في حين «ستالين» يجسد بداية هذه المرحلة المروعة ، إذا حالت كل هذه كل القوميات والتنظمات التي إصطنعها» لنيين» دون تمكن ستالين في بداية حكمه من تحقيق النظام التوتاليتاري، إن «ستالين»قام بخطوة رئيسة تحقق له معرفة القوانين التي تحرك المجتمع أصبحت إيديولوجيا رسمية للدولة الإشتراكية ، معتمدة على قوانين الجدل المستوحاة من فكر»إنجلز»، إن ستالين يحدد برنامج الحزب التوتاليتاري سياسيا إذ يقول : «يجب على الحزب البروليتاري إجتناب الخطأ في السياسة ، وأن يستوحي قبل كل شيئ في برنامجه كل نشطاته العملية كقوانين تطور الإنتاج ، و تطور إقتصاد

المجتمع» [21] إن «ستالين» يعتبرنُمو المجتمع نموًا طبيعًا آليًا مثل نمو الكائنات الحية في الطبيعة هذا أيضا مفهوم ماكس فيبّرلتطور المجتمع ،لأنه قام بإسقاط المعرفة الطبيعية من حيث الإمكان على المعرفة الإجتماعية، وهذا ما يسمح بإستخراج قوانين صحيحة تحكم المجتمع ، منها وجدت قوانين مُحكمة تحكم الطبيعة ، هذه الملاحظة العملية هي التي ولدت الإيمان المطلق في الوسط البروليتاري (الإيمان المطلق بالتطور الإقتصادي والصناعي ضروري لتحقيق الإشتراكي)،« فالعنصر الإيديولوجي يؤكد على جعل النمو الإقتصادي عقيدة»[22]، إن «ستالين»عمل على الإسراع في التطور الإقتصادي و النمو حتى لايقضي على الثورة الإشتراكية من جهة ، ويقابله على نفس المستوى تعزيز وتطوير الجيش «لأن قوة الأمة ترتبط بالتنظيم العسكري ، ولأن أية جماعة لايمكن لها أن تستمر إلا إذا إمتلكت الحد الأدنى من القوة» [23] ، أصبح أنصار الحزب البروليتاري يؤمنون بالعنصر الإيديولوجي ، و بالتالي أصبحت الدولة هي الحزب و هي الحقيقة المطلقة (إلا أن الوعي من طرف لنيين منعدم عند البروليتاريين)، فكان على الحزب أن يؤمن بالدور الطلائعي لتحقيق الإشتراكية بكل مفاهيمها ، لذا نجد الدولة كانت تقوم بهذه المهمة :لأن النظرية الإشتراكية في بلد واحد قدمت الماركسية السوفياتية الإطار العام الذي يبّرر تاريخيا ضغط الدولة من خلال الحكم الستاليني [24] ، (غياب الوعي في الطبقة البروليتارية، إنتهزت الدولة هذا الفراغ وأصبحت تمارس ضغطها على البروليتاري)، فإن ستالين كان مجبرًاعلى تصفية ما تبقى من صلاحيات مجاليس السوفيات المحلية أو الجهوية التي تساهم في تدبير الشأن السياسي والإقتصادي و الثقافي بصيغة أقرب إلى الفيدرالية البرلمانية و تحويل في نفس الوقت مركز السلطة في يد قوة واحد وبالتالي « إنكم ستضعون الحزب في مكان البروليتارية ، ثم اللجنة المركزية في مكان الحزب وفي الأخير الأمين العام للحزب في مكان اللجنة المركزية و بإسم البروليتارية تتحصلون على السلطة المطلقة ، ولواحد فقط»[25] ، وعليه تكون البروليتارية حققت الأرضية الخصبة للتوتاليتارية التي مبدأها الرئيس «الواحد يهيمن على الكل»، كما أنه شرع في إنشاء خلايا بلشفية محلية مرتبطة بلجان مركزية تضُم كبار الموظفين وما أن قارب عام 1939 على النهاية حتى إنهار النظام البروقراطي القديم (الذي وضعه لنيين) وحل محله نظام جديد يقوم على مركزية شديدة وشلل تام كلي للفعاليات والصلاحيات المحلية و الجهوية ، الى جانب كل هذا قام «ستالين» بحملة تصفية في صفوف الكوادر الحزبية القديمة التي كانت تُكن الولاء لفكر «لنيين»، و أيضًا كوادر المخابرات الذين نشطوا في المرحلة السابقة ، كما أضاف لهذه الإجراءات جواز سفر داخلي يتم بموجبه تسجيل كل أسفار الناس بين المدن الداخلية ، حتى يتسنى من خلاله ضبط كل الحركات سواء لمواطنين عاديين أو أُطر بيروقراطية وحزبية ، إلا أن هذه التصفيات كانت عبثية من الناحية السياسية و الإقتصادية لأن كل هذه الفئات لم تكن معارضة للنظام و لاتشكل أي خطر علية حيث أن المعارضة الفعالة و المنتظمة قد كفت عن الوجود فعيًا بالضبط سنة 1930 ، عندما ألقى« ستالين» خطابه أمام المؤتمر السادس عشر للحزب حيث ندّد بشدة الإنحرافات الحاصلة في الحزب بإمتداد للمقاومات التي أيدتها طبقات الفلاحين و البرجوازين الصغار وإزاء هذا الهجوم الستاليني كانت المعارضة عزلاء وعارية تماما ، أثرت هذه التصفيات الستالينية التي طالت مُدراء الوحدات الصناعية و المهندسين بإعتبارهم برجوازيين صغار على المردودية الإقتصادية ، فأصبح الإقتصاد السوفياتي عاجزًا عن سدّ حاجياته الفلاحية من جراء الضّرر الذي أصاب طبقة الفلاحين والنزع العشوائي للملكيات الأرضية ، زيادة على ذلك تناقص الخبرات و الكفاءات الصناعية إنطلاقا من هذه الأوضاع إتسعت دائرة التشتيت الإجتماعي لتشمل الروابط العائلية و علاقات الجوار و الصداقة ، فكل فرد تمّت تصفيته يُضع بطريقة ألية كل الناس المرتبيطين به موضع إتهام و تصفية في بعض الأحيان ، وهي التقنية التي عرفت ب «الإتهام بالتداعي» ،عمدّ الناس لتجنب هذا الإتهام أن تبرؤوا من بعضهم البعض و تحولوا الى وشاة ، الى إختراع الأدلة التي تدعم وشايتهم وولائهم للنظام «الستاليني» كوسيلة وحيدة لإثبات حسن سيرتهم وجدارتهم بالثقة ، إذا كان تقدير الفرد يقاس بعدد الوشايات عن الرفاق أوأفراد العائلته [26]، هذه التقنية التدميرية للبنية الإجتماعية التي بلغت حدودها القصوى أدت واجبها على أكمل وجه ، فهي في نهاية المطاف خلقت مجتمعًا من الأفراد المعزولين عن بعضهم البعض ، ولا يخضعون الى أي «ولاء عرقي» أو أسري أوحتى قومي ، سوى ولاء الفرد لجهاز الحزب وأجهزة الدولة البوليسية، وهكذا تكون السيطرة الكاملة و الشاملة على كل النواحي لحياة المواطنين ، وبالتالي يتم تنظيم السكان بشكل يُسهل إخضاعهم عقليًا وجسديًا مستخدمة «الأدلجة»كوسيلة ناجعة لغسل الأدمغة كما أدخلت الإيديولوجيا الشمولية خليطًا من المفاهيم و القيم : كالمجال الحيوي، إرادة القوة والفتح والتوسع العسكري، والأمن المحكم لتصبح كأساس في السياسة الرسمية للدولة الشمولية ، فحين لم تبتعد النازية الألمانية بدرجة كبيرة عن منطق التصفية وتدمير البنيات الإجتماعية الذي تفنّن فيها «ستالين»، إن «موسولين» و «هتلر» وصلا الى الحكم في نفس الفترة الزمنية (الحرب العالمية الثانية)، إنطلاقا من تحالفهما في الحرب العالمية الثانية ، لأن نفس الظروف الإقتصادية و السياسية هي التي أدت الى وصول كل من «موسوليني» و «هتلر» الى الحكم ، كلاهما إنطلاقا من الحركة العمالية التي نشأت بعد حرب عام 1914، والأزمات الإقتصادية التي تلتها ، و التي كانت السبب الرئيس فيها هي الطبقة البرجوازية ، إن الحركة العمالية بإيطاليا تأثرت بالحركة «البلشفية» وإستطاعت أن تحقق إنتصارًا

عام 1919 بدعامة ستالين (الذين حققوا نسبة 80%من الإنتخابات إلا أنهم رفضوا مشاركة الطبقة البرجوازية في الحكم ، كانوا يطالبون بالكل أو ب لا شيئ)، هدفهم السيطرة الكلية للطبقة البروليتارية دون الطبقة البرجوازية على الحكم، تَكون من الفاشية كنشاط سياسي منذ 23مارس1919 الى جانب الإتجاهات السياسية المسيطرة على الحكم أنذاك ، الإتجاه الليبرالي، والإتجاه الكاثوليكي، و الإتجاه الإشتراكي ، وهاته المبادرة تعود الى «موسليني « عندما دعى الى الجمعية العامة لإعطاء المبادئ الوطنية للحركة [27]، إن شعار موسوليني في تأسيسه للحركة التوتاليتارية «الكل أو بلا شيئ»، أي السيطرة و التحكم في كل طبقات المجتمع ، وعليه غستطاع موسوليني أن يكون الدولة الفاشية كما نادى بالوحدة الوطنية أو «وحدة الأمة»، نجد «هتلر» ينادي بوحدة العرق الآري (الجنس الجرماني)، لأنه يرى أن العرق الآري سيحكم البشرية ، و يكون سيدًا لها (كما نادى بهذا هيجل)، هذه الفكرة نجدها في كتابه كفاحي **Mein kampf** الذي ترجم الى 16 لغة تقريبًا ، و الذي تميزت به الحركة النازية عدائها للسامية ، وهذا ما تبينه «حنا أرنت» بقوله :« العداوة المُشكلة ضد اليهود هي بالضرورة ، رد فعل لقدرة تأثيرهم و قوتهم »[28]، إن اليهود يراهنون على قوتهم في عدّة مجالات، هذا ما أدى بـ «هتلر» لإعادة الإعتبار للعرق الجرماني بأنه أقوى عرق في العالم في شتى المجالات (لأنه خلق ليحكم و يسيطر على البشرية)، إلا أنه وجد نفسه في مواجهة مباشرة مع اليهود في أرض ألمانيا بالذات (لأنهم عززوا إنتشارهم في ألمانيا و النمسا)، لذا «حنا أرنت» تقول : « فكل ما كانت تخافه الدولة – الأمة هو تشكيل أنتيلجنسيا يهودية تطورت بخطوات عملاقة ، تجلت في الدخول القوي للعائلات يهودية شريفة في المهّن الفكرية التي كانت بالخصوص في ألمانيا و النمسا مثل الصحافة و النشر و الموسيقى التي أصبحت ميادين يهودية »[29]، إن هدف النازية هو تمجيد العرق و القضاء على العرق اليهودي، هذه الفكرة تعود إلى نظرية «داروين» التي تنص على قانون الإنتخاب الطبيعي والصراع من أجل البقاء ، هذه الفكرة كانت أساس الممارسة الإيديولوجية للنازية خاصة لإنها تبنت فكرة التطهيرالعرقي الآري (كانت تقوم به الشرطة السرية «المصالح السرية») التي يترأسها هيلمر **Himmler** و على هذا الأساس تتأسس الإمبراطورية الجرمانية التي سوف تحكم العالم «إن الإمبراطورية الجرمانية كما يقول هيملر ، أوكما كان من المفروض أن يقول هتلر بالإمبراطورية الأرية ، لم تكن لتحدث غدًا لأن في الوقت الحالي ، الأكثر أهمية هو إمكانية صنع عرق بإعدام لعرق بدل أن تقوم بحرب أهدافها محددة »[30]، بالإضافة الى تصفية اليهود بالدرجة الأولى ، نجده يريد التخلص من فئة العجزة و المرضى و المعوقين والمعتوهين ، لكونهم عناصر لا تتوفر فيهم الشروط العرقية الآرية المطلوبة ، وصلت النازية بدورها في نهاية المطاف الى نكران كل الروابط الأخلاقية ، التقليدية و الإجتماعية وجعل الرابطة الوحيدة المشروعة هي الولاء لهتلر يتضح ذلك من خلال الجملة الشهيرة التي خاطب بها» هملر» مدير المخابر رجاله «شرفي هو ولائي»[31] ، إذ لم يكن «هتلر» ليسمح لأي مواطن مهما كانت رتبته العسكرية أو البيروقراطية أن يتصرف خارج إرادته و أوامره «كل ما أنتم عليه تكونونه عبري» ، و الأكثر من ذلك إعتبر«هتلر» حتى الفعالية الفكرية و النشاط الذهني للأفراد في حقيقته ليس إلا إستجابات آلية لأوامر نعطيها و نتلقاها، أصبح مفهوم العدمية ليس منتشرًا فقط بين أوساط النخبة المثقفة بل شمل «جيل الجبهة» ، الذي أصبح يُمجّد الحرب و ثقافة النار و الفولاذ كوسيلة لتطهير العالم و الحياة من الزيف البرجوازي ، وإن كانت النخبة المثقفة تعبر بدورها على نفس الرغبة في التدمير فإنها حاولت أن تبلور تصورات جديدة تقوم على الجرأة وإقتحام قوة الغرابة الجارحة ، إستهدف« نتشه » «تحويل القيم « وتهديم كل أساس للحقيقة و الفضيلة بإعلان «موت الإله»وإصدار وصايا «زرادشت» كقيم إنسان كامل يؤسس فضائل الحياة على أساس القوة و الرغبة ، وفي نفس الإتجاه سار كل من «جورج سوريل»و»باكونين»و راميو» على هذا النهج ، صار التدمير و الفوضى و الخراب العميم قيمًا حازت على أسمى صدارة في مجتمع يبحث عن هوية جديدة ، مكنت الحرب جيل الجبهة من إكتشاف قيم المساواة الإنسانية بعيد عن الإعتبارات الأخلاقية البرجوازية القائمة على الشفقة والأنانية ، على خط الحرب المفتوحة عاش الجنود تجربة الإنصهار الوجداني وإندثار الإنتماءات الطبقية و العرقية و الثقافية ، أي الجميع في فندق واحد ، يتقاسمون العيش (يأكلون نفس الرغيف ، يُحسون نفس الإحساس أمام نفس المصير)، إذ يرى الجميع أن هذه التجربة أن هذه حبلى أي مليئة بالقيم الإنسانية الأصلية كأساس لتطهير الوعي الإجتماعي من الأمراض البرجوازية في عصر تميز بالنمو الفائق للبؤس وتفاقم اليأس الفردي ، حيث كان من الصعب جدًا أن يحافظ الناس في هذا المجتمع المتدهور على تصوراتهم المثالية للحياة والقيم ، بحيث إنقلبت المفاهيم وإستشعرت الحركات التوتاليتارية الى أن الحرب تحولت الى أداة فائقة الفعالية لإستقطاب الجماهير و توحيدها لدرجة الإختلافات الفردية تُمحى لمصلحة الشعور بالألم و اليأس الذي يُصهر الجميع في كتلة واحدة ، كان «هتلر»في السنوات الأولى من بلوغه السلطة يوقظ مشاعر «جيل الجبهة» بإعتبارها أداة التطور التاريخي التي تخدم طموحاته التوسعية و الإستبدادية حتى أن النازيين أرسوا كل دعايتهم على أساس هذه الوجدانية الرفاقية وبذلك أفلحوا في كسب تعاطف عدد من قدامى المحاربين عبر أوروبا قاطبة ، و بالتالي إكتشفوا حينها أن حركتهم قادرة على تجاوز الحدود القطرية ، وباتوا يسخرون أكثر من تفاهة الشعارات و الهويات القومية و الوطنية لأجل خلق «هوية كونية» تذوب و تنصهر داخل كل التميزات الفردية

و الجماعية، أي خلق إطار ضخم ومثقل بإيديولوجيات الوحدة الإنسانية العالمية يستطيع أن يسلب الفرد شعوره بالكينونة و الإرادة والمسؤولية الفردية ليتحول في النهاية الى مجرد عنصر بسيط في حركة لا حدود لها ، لقد إعترف«باكونين» قائلاً «لا أريد أن أكون ،أريد أن نكون نحن»[32]، وفي نفس الإتجاه كان «نيتاشيين» يبشر على طريقة« نتشه» بإنجيل «الإنسان الملعون» الذي ليس له مصلحة شخصية ،ولا شؤون خاصة ،ولا مشاعرأو إرتباطات أو ملكية أو ليس له حتى إسم يخصه بالضبط ،هذه النزوعات المعادية للإنسانية و التي طبعت جيل الحرب تحولت الى عداء نحو كل شيئ، محو الليبرالية،و الثقافة و الحرية و الديمقراطية ...إلخ، مقابل الإعلاء من شأن العنف و جعله قوة روحية تحرك الحياة و التاريخ ، لقد أدت هذه الثقافة الجديدة الى مبدأ الذي صاغه هوبز «حرب الكل ضد الكل»كضرورة قيمية وأنطولوجية و تاريخية ، وما على الإنسان سوى الخضوع المطلق للقوانين الطبيعية، وإن كانت هذه النخبة تعتقد ظاهريا بالقوانين الطبيعية الغريزية فليس لأنها مستعدة لأن تُخضع سلوكاتها لقواعد محددة ، بل مايهمها فقط هو أن تزعزع مشروعية القوانين العقلية القديمة التي كانت تتماشى و تتوازى مع قوانين الطبيعة ، فهؤولاء الجبهويون كانوا فقدوا كل مكانة لهم في العالم ولم يسعوا الى إلتماس أي نظرية سياسية أو أخلاقية جديدة تدمجهم ثانية في العالم ، كانوا أنصار بشكل أعمى كل ما كان قد وضعه المجتمع البرجوازي في خانة المحرمات أو الرذائل ، وراحو يمجدون العنف و القسوة كفضائل تناقض الجانب «الإنسانوي» والليبرالي الذي يُبيد به المجتمع بدا أن هذه العدمية الفائق ترفع ثقافة هذه النخبة عن وضاعة الحياة الإجتماعية و تفاهة الوظائف الإدارية و الصناعية ، إن هذه العدمية دشنت فلسفة جديدة للعنف ، إذ صار الإرهاب دخلاً سياسيًا لإثبات الوجود الذاتي وشكلاً للإنتماء الى المستقبل و التاريخ ، نظرت هذه «النحبة العدمية» للتاريخ الرسمي كمشروع مزيف ، طالما أن صناعة هذا التاريخ أقصت المعدومين و المضطهدين من دائرة البشرية ، وأولت عناية خاصة للفاتن و العبقري ....الخ[33]، إن رفض فكرة التاريخ وإدعاء زيفه قادت الى رفض فكرة الحقيقة بشكل عام يمكن لأي فكرة مهما كان زيفها أن تتحول الى واقع موضوعي بفعل المكر و المصلحة والألفة ، لاشك أن«هتلر» و«ستالين «إستطاعا بمهارة نادرة أن يضللا الجماهير التي نظّرت إليهما كشخصيتين أسطوريتين لكلاهما جلالة و عظمة ، ولم يكن أي أحد من الناس يسمح لنفسه بإفتراض إحتمال تعرضهما للخطأ، في مناخ كهذا تبعثرت كل القيم و تلاشت الإيديولوجيات التقليدية كان من السهل جدًا ومن الحيوي أن يُقبل الناس على فكرة جديدة مهما كانت عبثية و حمقاء ، كان أكبر دليل على ذلك ، في نظر«أرنت»، هو إستقبال الحار الي قوبلت به « أوبرا الفلوس الأربعة »«لبريخت» في ألمانيا النازية [34]، أظهرت المسرحية رجال العصابات بمظهر رجال الأعمال محترمين وطموحين في حين صورت البرجوزين كمجرمين ، فالعبارة التي ظلت تتكررعلى لسان الممثلين أثناء أداء المسرحية هي «في البدء الأكل ، وبعد ذلك الأخلاق «فكانت تثير موجة من التصفيق الحار وإن كانت النخبة تجد هذه العبارة و المسرحية كنظرة ناقدة لواقع الحياة ، فإن الرعاع وجدوا في المسرحية تكريسًا لنذالتهم الحياتية كلوحة نبل جمالي ، بحيث أن الدرس الذي يقدمه بريخت» في نهاية مسرحيته هو أن يرمي كل فرد قناع الخبث و النفاق وأن يرتضي قيم الرعاع كفضائل حياتية أصلية بعد مرور عشر سنوات على عمل «بريخيت» ألف سيلين مسرحية «ترهات في سبيل مجزرة »، إقترح فيها فكرة إبادة كل اليهود، وفي نفس الفترة أيضًا نشر «أندريه جيد» في جريدة الحزب الوطني الثوري الفرنسي مدحًا لفكرة «سيلين» ليس لأنه أراد قتل اليهود وإنما لكونه إستطاع أن يُعبر من دون نفاق عن هذه الفكرة القوية ، شكلت الإزدواجية الأخلافية التي تبنتها البرجوازية موضوع نقد شديد في الأعمال الفنية أوالفلسفية ، يعكس هذا النقد الصراع الخفي بين الرجل العادي و الرجل البرجوازي ،غير أن تهديم القيم البرجوازية دشّن مرحلة تخالف و تفرق بين النخبة و الرعاع من خلال إنتصار قيم الرعاع التي طالما إعتبرتها البرجوازية حقيرة ، قام التحالف بين الفئتين على أساس شعورهما معًا بقدرتهما الخارقة على تجسيد مصير جديد للإنسان ، مصير بريء من كل جمود و تقديس لقيم الماضي و الأخلاق المحافظة ، قاد هذا الشعور الوجداني الموحد بين النخبة المثقفة ورفاق الجبهة والجماهير، والرعاع الى تكوين كتلة إجتماعية جديدة تعيش حالة من الفوران، سهل على الحركات التوتاليتارية إستغلالها خدمة لمشروعها التوسعي و التدميري ، وجدت هذه الفئات في الحركات التوتاليتارية حيث كانت لم تصل بعد الى السلطة خير مُعبر عن أفكارها وأنجع وسيلة لتحقيقها على أرض الواقع ، لكن ما لبثت الحركات التوتاليتارية أن إستولت على السلطة حتى راحت تصفي كل فئة على حدى وتنتهج سياسة منتظمة للتفتيت و التشتيت والإرهاب الكلي.

هذه الجماهير الغير موجهة بل الضائعة ، و ليس لها مصالح خاصة ومحددة يمكن أن نسميها أو نطلق عليها مصطلح «اللامبالاة»، على هذه الحالة من اللامبالاة الحركات الشمولية تستند وبشكل متناقض من أجل إطلاقهم في مشاريع خطيرة جدًا ، وهي الإيديولوجيات الشمولية يأتي في طليعتها ما يسمى : بناء الإشتراكية ، تنقية العرق وغزوُ العالم ...إلخ.

إن هذه الأهداف المرتبطة بالعدالة هي التي أعطت الشرعية للأنظمة التوتاليتارية بالنسبة للنازيين وفق القانون الطبيعي والقانون التاريخي بالنسبة للبلاشيفة هذا ما تؤكد عليه «حنا أرنت» عندما تقول بأن الشرعية التوتاليتارية بتحديدها للمساواة وفي إدعائها بأنها سوف تبسط مباشرة سلطة العدالة على الأرض سواءًا بتحقيق القانون التاريخي أو القانون الطبيعي دون ترجمته الى قيم الخير و الشر في السلوكات الفردية [35] ، لأن الخير هو الخير الأسمى وخير جماعي، فإنتصار العرق هو خير بالنسبة للجرمان وإنتصار الملكية

العامة هي كذلك بالنسبة للبلاشفة .

إن النظام الشمولي لم يؤسس كالنظام الإستبدادي ،على إنتصار المصلحة العامة ،لأنه جاهز تمامًا للتضحية بالمصالح الحيوية فورًا ، وفي هذه الحالة بجماهير جاهزة لهذه التضحية ،من أجلها ومن أجل الأخرين، ليس بسبب الإيجابية التي تحركها وتدفعها ، بل لأنها لا تملك إرتباطًا خاصًا بها يمكن أن يقف أمام إرتباطها بالشمولية .

وهنا علينا أن نعرف هذه «اللامبالاة» عند هؤولاء ليس بالمعنى المثالي للمصطلح فكلمة «لامبالاة» تفهم في هذه الحالة من خلال إختلاط عقلي ، وغياب أي نقطة واضحة ،وهذه نتيجة لإنهيار البنية الإجتماعية الداخلية ، إنها حالة مرضية تؤدي الى نتائج خطيرة ،حيث «اللامبالاة» في جميع الأحوال ، ستسمح لهذه الجماهير بالقبول و الإعتقاد و العمل على خلق الإيديولوجيات الشمولية ،فهي تحرير أيضًا ما بداخلهم من شعور إجرامي وتطلق العنان لغريزة الموت.

ومن أجل الحفاظ على هذه الحالة المرضية من قبل الأنظمة الشمولية ،بحيث هذه الأنظمة ستسهر على منع بناء أي «جماعة مستقلة» يمكنها أن تؤدي الى تغير في البنية والجوهر لدى الجماهير ، ستقضي على جميع الجماعات الإجتماعية التي تخليقها هذه الأنظمة بيدها و التي لا تقودها بنفسها ، مهما كان سبب وجودها : جماعات نقابية ، سياسية ، مهنية، عرقية أوحتى جماعات تهتم بحماية الحيوانات ، وتعبرهذه الجماعات عدوة لها وتهددها بشكل دائم.

إن ظاهرة تفكيك و تذري الجماهير، التي تأتي بعد إعادة تنظيمها من قبل الحزب «القائد» هي مستقلة بشكل كبير عن الإيديولوجيات ، ففي هذه الحالة الإيديولوجيات تلعب دورًا ضعيفًا وخاصة في حالة الفاشية و النازية ، فتنظيم الجماهير سيحدث من خلال سلوك مسرحي ودرمي أكثر مما هو سلوك فكري عقلي ، حيث نرى المظاهرات الدائمة ،و الحركات الجماهرية ، الإحتفالات في كل مكان...إلخ.

وعليه إن الأنظمة التوتاليتارية في نظر حنا أرنت لا تقف عند حدود تدمير الحياة السياسية أوالحياة العامة بل يَطال تدميرها للحياة الخاصة، إذ تقضي على كل إنتماء مهما كان نوعه (إنتماء الى العالم أو الذات) وهي أقصى وأقسى أشكال الإقتلاع الجذرية «التفقر»، والمرء يكون مقتلعًا في نظر حنا أرنت هو أن لا يكون له مكان في العالم أو وضع معترف به من طرف الأخرين يضّمن له صلته بالعالم و إنتماء الى نسبه أو مجموعة معينة ، وعلى هذا الأساس يكون الإقتلاع شرطًا أوليًا لإنعدام الجدوى ، و البداية التي إن هي إرتبطت بشروط معينة تقود في النهاية الى التفقر ، وهذا الأخير يولد لنا و بشكل واضح مفهوم العنف وأشكاله (الإرهاب).

الهوامش

1- Emilio Gentile, Les Religions de la politique , Le seuil , Paris , 2005 , pp 107- 109 .

2-Rimone Arone , Démocratie et totalitarisme , Folio essais ,Gallimard , Paris ,1965.P 105 .

3- Arendt Hannah , La Tradition cachée , le juif comme paria , traduit de l'allemand et de l'Anglais par Courtine Denamy , Sylvie , Seuil , Paris , 1933 , P 22.

4- Raymond Aron , Machiavel et les tyrannis , Le livre de poche , Paris , 1995 , p 322 .

5- Ibid. ,p 06 .

6- Arendt Hannah , Penser le monde d'Aujourd'hui , Magazine littéraire , n 445 Septembre, 2005 , p 35 .

7- حنا أرنت ، أسس التوتاليتارية ، ص 10(7)

8- المصدر نفسه ، ص 07(8)

9- Hannah Arendt , Condition de l'homme Moderne , Calmann .Lévy , Paris , 1983 ,P 47.

10- حنا أرنت ، أسس التوتاليتارية ، (مص ،س) ، ص 32

11- Hannah Arendt , Les Origines du Totalitarisme , 3eme Partie , Edition du Seuil , c.1972, P 580581-.

12- حنا أرنت ، أسس التوتاليتارية ، (مص ،س) ،ص 32

13- المصدر نفسه ، ص 36

14- المصدر نفسه ، ص 33

15- المصدر نفسه ، ص 39

16- المصدر نفسه ، ص 38

17- Poper Karl , Société Ouverte et ses ennemies , tome 2(Hegel et Marx), traduction de Jacqueline Barnard et Philippe monord , edition du seuil ,1979 , P 75.

18- Raymond Aron , Dix huit Leçon sur la société , Gallimard , 1962 , P242 .

19- Herbt Marcuse , Le marxisme sovietique , traduit de l'anglais par Barnard Gases , édition Galimaard , 1969 ,P 48 .

20- Arendt Hannah , Le systéme totalitaire , traduit par Jean-loup bourget. Robert davreau et Patrik levy , edition le seuil , 1972 , P154

21- ستالين ، المادية الديالكتيكية و المادية التاريخية ، دار دمشق للطباعة و النشر (المكتبة الإشتراكية) ، سوريا ، ص 49

22- Herbet Marecuse , Le marxisme soviétique , Op. Cit , p 123-124

23- Raymond Aron , Dixhuit leçon sur la société indusetruelle , Gallimard ,1962 , P 90 .

24- Ibid , P 145 -146 .

25- Raymond Aron , Démocratie et totalitarisme , Op .cit , p 297 .

26- حنا أرنت ، أسس التوتاليتارية ، (مص ، س) ، ص 52

27- Milxa Pierre , Les Fascismes , le seuil , Paris , 1991 , P88 .

28- Arendt Hannah , Sur l'antisémitisme , traduit de l'anglais par Micheline Ponteau , édition Calmann-Lévy , P 28 .

29- Ibid , P 121122- .

30- Arendt Hannah , Le système Totalitaire , Op .cit , P 142 .

31- حنا أرنت ، أسس التوتاليتارية ، (مص ،س) ، ص 52

32- موناد ماكس ، رسل الثورة ، بارلين ، ألمانيا ، 1939 ، ص 180

33- المصدر نفسه ، ص 180

34- حنا أرنت ، أسس التوتاليتارية ، (مص ، س) ، ص 71

35- Hannah Arendt , Le système totalitaire , Op. Cit ,P 206 .